العرب
الجمعة 2021/10/08
السنة 44 العدد 12203

هل تنجح السينما المصرية في جذب الجمهور إلى المحرمات الدينية

«المُلحد».. شخصية إشكالية تم تهميشها فنيا لأسباب عقائدية وثقافية ومجتمعية

لـم يتوقّف الجـدل في مصر منذ أن بدأ الإعلان رسـميا عن تصوير فيلم يحمـل عنوان "المُلحد"، وهو يناقش لماذا وكيف يصل الإنسـان إلى مرحلة الكفر بالله: هل بسـبب المجتمع ونظرته التقليدية أم بسبب الخطاب الديني المتشـدّد، في خطوة يراها نقاد سينمائيون أنها قد تكون الأولى من نوعها التي تقتحم فيها السـينما العربية بشكل صريح أحد المحرمات الدينية في المجتمع المصري، وتناقش ظاهرة الإلحاد بصورة مختلفة عن الطريقة التي نوقشت بها في أفلام سابقة.

أحمد حافظ
كاتب مصري

الفيلم الجديد يحاول الخوض في الظاهرة بعقلانية

القاهرة – اسـتقبلت شريحة واسعة مـن الجمهور المصـري والعربي عنوان فيلم "المُلحد" باندهاش كبير، فهو جريء إلى حـد بعيد، ولا يتناسـب مع الثقافة المحافظة التي ترفض كل ما يشـكّك في الديـن أو يتعارض معـه، بغض النظر عن أسـلوب النقـاش ومبرراته حتى لو كان بغـرض الدفاع عـن العقيدة، وهو نفـس المنطق الذي يفكّـر به كثيرون في دول عربية، ومع أن النقاش السـينمائي لقضية الإلحـاد ليس جديدا، لم يسـلم الفيلـم من النقد واتهامات الإسـاءة لله والإسلام.

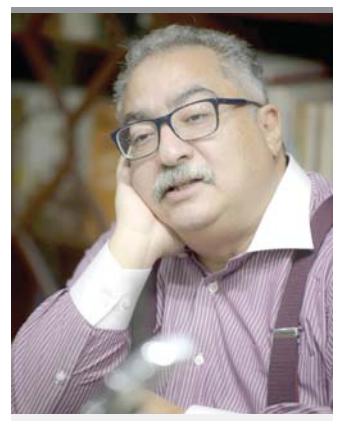

مؤلف الفيلم إبراهيم عيسى عرف بمواقفه الجريئة التي تصدّى من خلالها للتشدّد بمختلف أشكاله، وهي قيمة فنية ثابتة في أعماله

إلاّ أن مـا يمهّـد لإمكانيـة أن يكون الفيلم عميقا في مناقشة القضية وبعيدا عن الأعمال السـينمائية السـابقة التي عالجت القضيـة بصورة هامشـية أنه من تأليـف الصحافي إبراهيم عيسـى، المعـروف بميولـه المتحرّرة عـن كل ما يرتبط بالقيـود الدينية والفكرية، ولديه مواقـف جريئة تصدّى خلالها للتشـدّد باختـلاف أشـكاله، أيّ أنه علـى دراية بماهيـة الإلحاد وأسـبابه، فهو واقعي فـي أفلامه وكتاباته ويميل إلى الحقيقة المجرّدة.

والفيلـم من إخـراج مانـدو العدل، وهو التعـاون الثاني بينه وبين الكاتب إبراهيـم عيسـى بعـد فيلـم "صاحب المقام"، ويشـارك فـي بطولـة "المُلحد" مجموعة كبيرة من النجوم، بينهم الفنان محمود حميدة وصابرين وحسين فهمي وتارا عمـاد وأحمد حـاتم ونجلاء بدر ومصطفى درويش وأحمد السلكاوي.

وقـال الناقـد الفنـي محمـود عبدالشـكور لـ"العـرب"، إن قضية فيلم "المُلحـد" خطيـرة، والميـزة أن إبراهيم عيسـى من اهتماماته أنه دائما ما يقدّم زوايـا مختلفة في رواياتـه، وهو أيضا مهتـم بنقد الثقافة الدينيـة وهذه قيمة فنية في أفلامه، ما يمهّد لتكون معالجته للإلحـاد عميقـة فـي تناولهـا للجانب الخاص بالشـخصية والعلاقة مع الآخر بمفهومها الشامل.

وأضاف "شـخصية المُلحد لم تأخذ حقها على شاشـات السـينما المصرية والعربية لأسـباب عديدة، وعندما تكون هناك معالجـة عميقة فهذه مغامرة فنية من الدرجة الأولى، ونجاحها مرتبط بأن يكون الفنان هو المحور، ولن يحدث ذلك قبـل أن نعترف بأن الفن بالأسـاس هو تعبير عن همّ شـخصي وليس انعكاسا لوجهات نظر".

مسافة بين فيلمين

سـبق أن عُرض فيلـم مصري حمل العنوان ذاته للفيلم الجديد "المُلحد" عام 2014، وفشـل في لفت انتبـاه الجمهور وتم رفعه مـن دور العرض، رغم موافقة مؤسسـة الأزهـر عليـه، وعـدم تدخل الجهـات الرقابيـة فـي حـذف أيّ من مشـاهده، حيث كان لم يحمل إساءة لأي دين، أو يروّج للإلحاد.

كانـت أبـرز مشـكلة واجهـت هذا الفيلـم أنه عُرض في ذروة الاسـتقطاب السياسـي والديني، عقب سـقوط حكم الإخـوان، وتصاعد موجـة الإرهاب في مختلـف ربـوع مصـر، أيّ أن الظروف السياسـية لم تكن تصلح لمناقشة قضية جدلية مثل الإلحـاد، في ظل عدم اقتناع الجمهـور بإمكانيـة دخـول السـينما لمشاهدة فيلم يتطرّق لإنكار الدين والإله والكفر بهما.

ولـم يحقّـق الفيلم الـذي كتب عليه للكبار فقط لجذب الجمهور أرباحا تدفعه للاسـتمرارية فـي دور السـينما، إذ لم تتخـطّ إيراداته ما يناهز المئة والثلاثين ألـف جنيه، لأسـباب ارتبطت بالظروف المحيطـة بتوقيـت عرضـه، إضافة إلى خوف دور السـينما من تسويقه، لدرجة أن أربع عشرة قاعة عرض فقط هي التي سـمحت بعرضه للجمهـور من بين مئة دار، والسـبب الأهم أن الفيلم كان فقيرا فنيـا، وضعيفا دراميا، وتنـاول قضية الإلحاد من منظور سطحي.

شـارك فـي هـذا الفيلـم صبـري عبدالمنعم وياسـمين جمال وحسن عيد ومحمد هشام وليلى عز العرب، وهو من تأليف وسـيناريو وحوار وإخراج نادر سيف الدين.

ويأمـل الكثير من النقـاد أن يتطرّق فيلـم "المُلحد" الجـاري تصويره حاليا إلـى القضيـة مـن منظـور واقعـي، ورصدها وفق دراسـات علمية وميدانية تناقش حياة الشـخص المُلحـد بحبكة فنية متماسـكة وثرية وعقلانية تشـوّق الجمهور إليه دون تهويل أو تزييف.

محمود عبدالشكور

الفن بالأساس هو تعبير عن همّ شخصي وليس انعكاسا لوجهات نظر

ومـا قـد يعطـي مؤشـرا إيجابيا علـى إمكانية اختـراق الفيلـم الجديد للأفكار والأسـرار فـي عالـم المُلحدين لكشـفها بشـكل عميـق أن مؤلّفـه سـبق وانتقد تقـديم شـخصية المُلحد بصـورة غيـر واقعيـة، والتعامل معه كإنسـان لديه خلل عقلـي، دون التركيز على أفكاره.

وصـارت المؤسّسـة الدينيـة تميل بشـكل أكبر إلى حتميـة وجود اختراق فني يسـتهدف التصدّي لظاهرة الإلحاد والتحذير منها والوصول إلى أسـبابها بطريقـة علميـة نقديـة، وثمـة دوائـر حكوميـة ترغب في أن يقـوم الفن بدور أكبر في تجديد الخطاب الفكري والديني والطعـن فـي كل مـا يرتبط بالتشـدّد، والتركيز على تبعاته السلبية.

صورة مكرّرة

أزمـة الكثير من أفلام السـينما في مصر التي تطرّقت لظاهـرة المُلحد أنها قدّمتـه بصـورة مشـوّهة فـي محاولة لتنفيـر الجمهـور منـه، وتعاملت معه كمجنـون ومنحـل أخلاقيـا وعاشـق للجنس والملذات، ولم تتعرّض للأسباب التي دفعته لاختيـار طريق الإلحاد، هل التشدّد الديني أم المجتمعي، أم الهيمنة الأسـرية، أم الأجـواء العامة فـي البلد الذي يعيش فيه.

وقـال عبدالشـكور لـ"العـرب" إن أيّ فيلم يتطـرّق إلى القضايـا الدينية الشـائكة مثل الإلحاد يتطلّـب أن يكون عميقا فـي التناول والتحليـل والقراءة الجيدة للمشـهد العام، وكيفية توصيل موضوع جدلي محفوف بالمخاطر بشكل يدفع النـاس لتقبّله من خـلال معالجة فنية ثريّة وشـيّقة تجنبا لسقوط الفيلم في دوامة تقديم دراسة أو خطبة دينية.

ويرى البعض مـن النقاد أن العبرة من اقتحـام السـينما لقضايا شـائكة فـي أيّ مجتمـع عربي مرتبطـة بالدين تحديدا، ليسـت في كم الأفلام التي يتمّ إنتاجهـا حول هذه الموضوعات بقدر ما تكمن الأهمية في المضمون والتعمّق في التفاصيـل وطريقة العـرض والنقاش بشـكل نقدي بناء بعيدا عن السـطحية وغياب الجرأة في التطرّق إلى الأسباب والحلول خشـية الصدام مع محظورات الجمهور حول الصدام مع الدين.

> الكثير من الأفلام المصرية التي تطرّقت لظاهرة المُلحد، قدّمته بصورة مشوّهة في محاولة لتنفير الجمهور منه

وهناك الكثير من الأعمال الفنية التي تطرقت إلى مسـألة الإلحاد، لكن أغلبها لم يناقش القضية بشكل دقيق، وما زال الجمهور لا يفرّق بين المُلحد والشيوعي والعلماني، كما أن النسـبة الأكبر منها، ربما جميعها، لم تشر بشكل مباشر إلى أن تيارات الإسـلام السياسي والخطاب الدينـي المتطرف، حتى من جانب بعض المؤسسات الدينية الرسمية، كانت سببا في ميل البعض من الشـباب إلى المضي في طريق الإلحاد.

بـدت نهايـات أغلـب الأفـلام التي تناولت الإلحاد قريبـة من بعضها، بأن يتوب الشـخص المُلحد إلى الله ويعود إلى رشـده ويكفّ عن إنـكار وجود الإله والديـن، ويبـدو أن الأمـر فـي ظاهره محاولة لاسـترضاء الأكثرية المحافظة التي لـن تقبل بغير ذلك، حتـى لا يُتّهم العمـل بأنـه يـروّج إلى فكـرة الإلحاد ويدافع عـن الملحدين ويتبنـى أفكارهم ويتعاطف معهم، وهي معالجة فنية غير احترافية للقضية.

ميراث فني كبير

كانـت أولى الأفـلام التي ناقشـت الإلحـاد فـي السـينما المصرية، "الشـحات"، وتم إنتاجـه عـام 1973 بطولة الفنان محمود مرسـي، ويتحدّث عن محامـي ينتمي إلـى الطبقة الغنية ويسـاوره قلـق وجـودي حـول أهمية حيـاة البشـر وسـرّ الخليقـة والكون والإيمان بالله، فيعشق الملذات الجسدية باحثـا عن متعتـه الذاتية فـي الحياة، ثـم يصل بـه الأمـر لمقايضة عشـيقته مـع صاحب الملهـى الليلي الـذي كانت تعمل فيه، مقابل أن يجيبه على سـؤال يشـغل عقله: هل يؤمن بالله أم لا؟ ومع عـدم حصوله علـى إجابة يقـرّر العزلة والتصـوف والطمأنينـة الإلهية ويعود إلى طبيعته.

وفـي العـام التالـي ناقـش فيلـم "الأخوة الأعـداء" بطولة نور الشـريف قضيـة الإلحاد، عندما ظهر بشـخصية المثقف المُلحد الـذي يفتخر بكونه ناكرا لأي وجـود إلهـي ليدخـل فـي صراع مع عائلتـه ثم يصل إلى يقـين بأن الله موجود بالفعل.

وبعـد عامـين، أي فـي عـام 1976، عـاد الفنـان نور الشـريف مـرة ثانية ليُناقـش ذات القضيـة في فيلـم "لقاء هناك"، ويظهر بشـخصية شـاب يتمرّد ضدّ وصاية والـده الدينية، في الصلاة والصـوم والالتـزام، ليصـل إلى رفض الوصايـة الإلهية في المطلـق، وفي عام 1993 قدّم أيضا شخصية المُلحد في فيلم "الرقص مع الشيطان".

ومـا يعـزّز سـطحية المعالجـات السـينمائية للإلحـاد التـي تناثـرت وجـاءت بصـورة متفرّقـة بعضهـا مباشـر والبعض غير مباشـر، أنها لم تربطـه بالتطـرّف الدينـي، بعكـس ما يؤمـن بـه إبراهيـم عيسـى، إذ جاءت كل تصريحاتـه الصحافيـة وعـدد من أبطـال العمل فـي سـياق أن الناس ما زالـت تبحث في أسـباب عـدم الإيمان، ولا تفرّق بين الإلحاد الناتج عن التفكير الزائـد فـي الدين أو بسـبب التشـدّد والترهيب.

ولفت عبدالشـكور إلى أن التجارب السـابقة التـي تناولـت المُلحـد كانت أنضجهـا شـخصية في فيلـم "الأخوة الأعداء" التي ارتبطت بالرواية نفسـها، لكن المعالجات الأخرى جاءت نظرية ولم يتقبّلها المجتمع.

والخطورة في التناول الفني لقضية مثل الإلحـاد، أن يتم معالجتها بشـكل مباشـر وكأن إنتـاج فيلم عـن الإلحاد واجـب ديني، وهذا ليس دور الفنان، بل الأهم أن يعبّر بشكل صادق وحقيقي عن الشخصية التي يتناولها دون استسلام لرقابة ذاتية أو مجتمعية.

الراحل نور الشريف أكثر من جسّد شخصية المُلحد في ثلاثة أفلام، هي: «الأخوة الأعداء» و«لقاء هناك» و«الرقص مع الشيطان»

صحيح أن منسـوب التشدّد الديني لم يكن في الماضي بـذات الصورة التي صار عليها مؤخرا، لكن أي معالجة فنية لقضيـة الإلحاد من دون ربط شـخصية المُلحـد بمـا يـدور حولـه مـن تطرّف وترويج للعنف والوحشـية وربط حلول المجتمع بأسلمة الدول لن تكون واقعية، لأن شريحة ليسـت بالقليلة من الشباب سـلكت طريـق الإلحاد بسـبب الخداع والنفـاق والتخفـي في عباءة الإسـلام واللحية.

وبغـض النظر عن مضمـون الفيلم المرتقـب عرضه عن الإلحـاد، فالأهم من مناقشـة القضية من منظور معاصر أن تقـوم السـينما بالدور الذي فشـل فيه الخطاب الديني، إذ لا يمكن معالجة هذا الموضوع الشـائك سـوى بطريقة فنية تمنح للمُلحد مسـاحة كافية للتعبير عن أفكاره بحرية تامة، وتكرّس قيم التسامح والنقاش والحـوار معـه كمدخل للحل والتفكير على هيئة مناظرة سـينمائية بـين قناعاتـه التـي يراهـا صحيحـة والحقائق الثابتة التي يفترض أن تكون هي الصـواب للوصول إلى أرض صلبة تقـف عليها كل الأطراف، ويُترك للجميع حرية الفصل في القضية.

«الشحات» أول فيلم مصري ناقش قضية الإلحاد